Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 03:3 (1967)

معنى المقامة

عبر عصور الادب العربى

بقلم الدكتور فكتور الكك
استاذ الادب العربى و اللغة الفارسية
فى الجامعة اللبنانية بيروت

جاء فى لسان العرب (١) المقام = موضع المقدمين قال :

هذا مقام قدمى رباح غدوة حتى دلكت براح

المقام و المقامة بالضم الاقامة- و المقامة بالفتح المجلس و الجماعة من الناس ... و قوله تعالى : لامقام لكم اى لا موضع لكم. و حسنت مستقرا و مقاما اى موضعا ...

فابن منظور كما ترى يذكر للمقامة معنيين: المجلس و الجماعة من الناس. و هذان المعنيان واردان فى الشعر الجاهلى. قال زهير :

و فيهم مقامات حسان وجوههم و أندية ينتابها القول و الفعل
على مكثريهم رزق من يعتريهم و عند المقلين السماحة و البذل

فوضع لفظة مقامات ازاء أندية كما يستفاد من قول لبيد :

و مقامة غلب الرقاب كأنهم جن لدى باب الحصير قيم

ان المقامة تعنى كذلك الجماعة من الناس فيكون مدلول المعنى قد انتقل من مكان الاجتماع الى المجتمعين فيه. (٢)

و قد وردت لفظة مقام فى القرآن مقرونة احيانا بلفظة ندى كما فى الآية التالية ''اى الفريقين خير مقاما و احسن نديا''. (٣)

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

ثم ان مدلول اللفظة اخذ يتطور مع الزمن فصارت المقامة بمعنى العظة و الخطبة الاخلاقية ينشدها الرجل بين يدى الخليفة او الامير. فقد عقد ابن قتيبة فى عيون الاخبار فصلا سماه مقامات الزهاد عند الخلفاء و الملوك (٤) كمقام خالد بن صفوان بين يدى هشام بن عبدالملك و مقام عمرو بن عبيد بين يدى المنصور و مقام صالح بن عبدالجليل بين يدى المهدى. فيذكرون السلاطين بصروف الدهر و مكايد الايام و يدعونهم الى الاعتبار بالامم الخالية و الملوك الفانية فيحثونهم بذلك على الصلاح و النظر فى العاقبة و المصير.

و اشار ''بلاشير'' الى امر جدير بالالتفات مؤداه ان هذه المقامات او العظات كانت تلقى على مسمع من الوجوه و المتأدبين فلابد لها اذا كى تبلغ غايتها من الاقناع و التأثير ان تعتمد مذهبا من الكلام بليغا يقرع الاسماع و يستهوى القلوب و يعقد ابو الفتح الاسكندرى بطل المقامات الهمذانية هذه الوجوه الكلامية فى سبيل التأثير على سامعيه و و نيل غرضه من التكدية.

ثم صنفت هذه المقامات التى اشار اليها ابن قتيبة نوعا من انواع الادب كالشعر و الخطب. فنرى ابن المدبر — و هو من ادباء القرن الثالث — يوصى المتأدب فى كتابه ''الرسالة العذراء'' ناصحا (٦) ''و انظر فى كتب المقامات و الخطب و محاورات العرب''، كما يروى صاحب العقد عن يزيد بن عبد الله قوله لكاتبه ''فتصفح من رسائل المتأخرين ما يرجع اليه و من يزيد نوادر الكلام ما تستعين به و من الاشعار و الاخبار و السير و الاسماء ما يتسع به منطقك و يطول به قلمك و انظر فى كتب المقامات و الخطب. (٧)

و الجدير بالذكر ان معنى المقامة انحرف فى القرن الثالث الهجرى فتدنى الى الدلالة على كلام الشحاذين الذين اضطروا فى توسلهم الى

المحسنين بدعاءات توجيهية ان يستعملوا لغة مختارة منمقة. ذلك ان الثقافة الادبية التى كانت فيما سلف من مميزات البلاطات و روادها اخذت فى الانتشار بين طبقات الشعب و فى كتاب المحاسن و المساوئ للبيهقى (نشرة شولى) عظة من هذا النوع رواها الجاحظ و يبدو ان عظات التكدية هذه كانت اساسا لفن المقامات و لكن ما بالنا نقصد السواقى و الروافد و نعمى عن البحر و ما فى اغواره من درر؟ و ما شأن المتنبى لا يقرع آذاننا بحكمه الجوائب ''و من قصد البحر استقل السواقيا'' اما البحر الذى نحن بصدده فهو مقامات بديع الزمان التى انتهت اليها جميع المعانى التى فصلنا مدلولاتها.

وردت لفظة مقامة فى مقامات البديع الهمذانى اربع مرات: مرة بصيغة المفرد و ثلاث مرات بصيغة الجمع. غير انها جاءت مرة واحدة فى معرض الاستشهاد فلا تكون من كلامه فى شئ(٩)، اما الالفاظ الثلاثة الباقية فمنها واحدة فى المقامة الرصافية فى اثناء الكلام على اللصوص و حيلهم. قال البديع ''و اصحاب العلامات و من ياتى المقامات''(١٠) و قد شرح الشيخ محمد عبده فى ذيل الصفحة هذين التعبيرين فقال ''اراد من العلامات ما تتخذه الطوائف المتزهدة لتمييزها بعضها عن بعض كما تراه فى ابناء الطريق المتصوفين لهذا العقد و امثالهم فى الملل الاخر فان لكل طريقة زيا يتزيأ به اهلها. فمن السارقين من يتزيا بزى من هذه الازياء ليغير الناس فيأمنوه و يتمكن من اختلاس اموالهم و مثلهم من ياتى المقامات فهو يلبس لباس الاولياء و يلج البيوت و يتصل بالمقامات الرفيعة و لا يدفعه الحفاظ حياء و توقيرا فينال بذلك بغيته من السرقة''.

فالمقامات هنا تعنى على ما يظهر — بيوت الوجوه و الاعيان او مجالسهم و هذا المدلول قديم العهد كما مر بنا. و من جهة ثانية نرى هذه اللفظة واردة فى المقامة الاسدية بمعنى الخطبة و المقالة. جاء فى

المقالة المذكورة(٩) حدثنا عيسى بن هشام قال ''كان يبلغنى من مقامات الاسكندرى مقالاته يصغى اليه النفور و ينتفض له العصفور''. فقرن الهمذانى المقامات بالمقالات. و لا يخفى ان المقالة مصدر قال فيكون معناها الخطبة بدليل اصغاء النفور لها لما فيها من بلاغة تستخف الانسان و تخرج به عن طبعه.

غير ان المقامة الوعظية تكشف لنا بوضوح لايغشاه اللبس وجه التسمية التى أطلقها الهمذانى على مقاماته. اذ ان راويته عيسى بن هشام و قد مر ذات يوم بالبصرة أداه السير الى قوم مجتمعين على قائم يعظهم و يذكرهم بفناء الدنيا قائلا ''ان بعد المعاش معادا فاعدوا له زادا... الا و ان الدنيا دار جهاز و قنطرة جواز من عبرها سلم و من عمرها ندم ، فاعجب عيسى ببلاغته و نفاذ حجته فقال لبعض الحاضرين — من هذا ؟ فقال غريب قد طرأ لا اعرف شخصه فاصبر عليه على آخر مقامته لعله ينبئ بعلامته(١٢) فالمفهوم من هذا النص ان المقامة اصلا هى العظة يلقيها المكدى على الناس فيذكرهم بان الدنيا مجاز الى الآخرة و يدعوهم الى اصلاح السيرة و التوبة الى الله بغية الاحتيال عليهم و مخادعتهم لكسب المال. و من ثم جرت هذه اللفظة على كل كلام بليغ يستخدمه المكدى من ادعية و اوصاف لسؤ حاله و وعورة تطوافه فى البلاد الى آرائه فى الحياة و الموت لجمع الصلات و كسب الاموال.

ثم أطلق الهمذانى على هذا الفن الطريف من المقطوعات الادبية التى ابتدعها اسم المقامات لانها فى معظمها تدور على الكدية و ليس فى ذلك ما يدعو الى انكار موافقة الاسم للمسمى و قد اتسعت دائرته و شملت بالاضافة الى كلام المكدى اخبارا و حوادث و آراء يقصها راوية جوال عن مكد طارت شهرته فى الافاق او عن مغامراته الخاصة و فى بعض الاحيان عن مغامرات السلف فان عادة جرت فى البيئات العربية و الاسلامية فى تسمية الكتب و هى ان يسمى الكل باسم الجزء كما

سمى الخليل بن احمد كتاب العين باسم احد حروفه. او كما سمى ابو الفرج الاصفهانى كتابه ''الاغانى'' و فيه تراجم للشعراء و نوادر و حوادث رواها عن الخلفاء و الامراء و الادباء غيرهم مما لا يدخل فى باب الاغنية و الوتر.

و لا يسعنا بعد البحث اللغوى — التحليلى و الادبى — الفنى الذى عرضنا له ان ناخذ باقوال بعض المصنفين و مؤرخى الادب الذين زعموا ان المقامة سميت بهذا الاسم لانها كانت تروى فى المجالس. قال القلشقندى فى المقامات ''و هى جمع مقامة بفتح الميم و هى فى اصل اللغة اسم للمجلس و الجماعة من الناس و سميت الاحدوثة من الكلام مقامة كانها تذكر فى مجلس يجتمع فيه الجماعة من الناس لسماعها.''(١٣)

فهذا التحديد لا يستند الى اساس لغوى او عرف فى الاستعمال. فلم نعرف احدا استعمل لفظة المقامة بمعنى الاحدوثة من الكلام تروى فى المجالس. و اذا فرضنا ان العادة جرت بان تروى المقامات فى المجالس بعد ذيوعها فلا يكون ذلك سببا لتسميتها. و قد تكون هذه العادة فى رواية المقامات فى المجالس هى التى أوحت لاخوان الصفا ان يستعملوا لفظة المقامة بمعنى الحصة من الدرس اذ قالوا فى رسائلهم التى قسموها دروسا ''جعلناها مقامات يقوم عندها من اهل العلم طبقات يأخذ كل منها بحظه و قسطه''.

اما و قد فرغنا من تحليل العوارض التى كيفت معنى المقامة اللغوى على مر العصور فبقى علينا ان نوضح ما هية المقامة كفن ادبى جديد بالنظر الى محتواها و عناصرها فنقول: المقامة حديث قصير من شطحات الخيال او دوامة الواقع اليومى فى أسلوب مصنوع مسجع تدور حول بطل افاق اديب شحاذ يحدث عنه و ينشر طويته راوية جوالة قد يلبس جبة البطل احيانا و غرض المقامة البعيد هو اظهار الاقتدار

على مذاهب الكلام و موارده و مصادره فى عظة بليغة تقلقل الدراهم فى اكياسها او نكتة ادبية طريفة او نادرة لغوية لطيفة او شاردة لفظية طفيفة.

(المراجع)

١- لسان العرب مجلد ١٢ ص ٤٩٨

٢- ترجم المستشرق سلفستر دو ساسى المقامة بكلمة (سيانس) اى مجلس و شاع استعمال المستشرقين لها على هذه الصورة. الا ان اللفظة الفرنسية مقصرة عن تادية مدلول اللفظة العربية فى ملابساتها المتعددة.

٣- القرآن الكريم سورة مريم الآية الثانية و السبعون.

٤- عيون الاخبار ج ٢ ص ٣٣٣

٥- ''المشرق'' سنة ١٩٥٣ ص ٦٤٦

٦- الرسالة العذراء ص ٧

٧- العقد الفريد ج ٢ ص ٢١١

٨- المقامة الجرجانية ص ٤٧ س ٤ وفيها يضع البديع على لسان الاسكندرى قول زهير :

وفينا مقامات حسان وجوهم و اندية ينتابها القول و الفعل

٩- المقامات ص ١٥٩ س ٥

١٠- المقامات ص ٢٩

١١- صبح الاعشى ج ١٤ ص ١١٠ المقالة العاشرة و للدكتور شوقى ضيف فى كتابه المقامة ص ٧ رأى قريب الى حد ما من رأى القلقشندى. قال الدكتور ضيف ''و على هذه الشاكلة تعنى الكلمة من معنى القيام و تصبح دالة على حديث الشخص فى المجلس سواء أكان قائما أم جالسا.